شبح المحروق

معتز خلوصي

يبدو أنني سأعاني قليلًا حتى أروي لكم قصتي،

انتقلت حديثًا إلى إحدى العمارات التي ليست بالقديمة و ليست بالجديدة، ولكنها في منطقة يقل فيها العمران نوعًا ما و قريبة من البحر أيضًا ، كان ذلك غريبًا نوعًا و لكنه محبب إلي؛ فأنا من محبي الهدوء و البحر و الصيد، عمارة صغيرة لا يسكن فيها سواي و إيجارها يناسب قدراتي المادية.

انتهزت أول فرصة و جهزت صنارتي و صندوق حفظ الأسماك الصغير و كرسي بحر و مذياع للتسلية، و انطلقت للصيد على الشاطيء بعد منتصف الليل عازمٍ على المكوث حتى الصباح ، ما المشكلة فغدًا الجمعة و إجازة رسمية على أية حال، سرت مسافة طويلة على ضوء القنديل و الذي يعمل بالبطاريات حتى وصلت إلى الشاطيء، فرُغم أنني أراه من شرفة البيت إلا أنه لازال بعيدًا.

وضعت أشيائي على الشاطيء و جلست على الكرسيّ و أمسكت المذياع و أدرته على قناة إذاعية كانت تذيع أغنية لأم كلثوم ، ليلة جميلة و نسائمها منعشة و هلال ينير في السماء و أمواجٍ هادئةٍ و صيدٍ جيد.

مرت ساعتان و بدأ صوت المذياع في الانخفاض حتى خفت تمامًا، فرغت بطاريته و لم تنته الليلة بعد والهدوء لا يكسر حدته سوى صوت الأمواج الخفيفة، أشعلت سيجارة أسلي بها نفسي.

قليلًا بعد، و بدأت أسمع صوت خطوات على الرمال و الحصى لأحدٍ ما يقترب، أنظر حولي فلا أجد شيء ولا حتى ضوء لبطارية، كيف لذلك السائر أن يرى طريقه في الظلام؟!

لست أدري، لعله زميل صيد مثلي ويهوى مثل هوايتي، الصيد ليلًا ممتع.

الخطوات تقترب و يعلو صوتها، سكتت الخطوات فجأة و سمعت أصوات لأشياءٍ ترمى على الأرض، نظرت ناحية الصوت و على ضوء الهلال الضعيف على بعد رأيت ظلًا يتحرك بلا ملامح، صحت (أهلًا) لكنه لم يُجب ، فصحت ثانية:

- (إذا إحتجت إلى مساعدة أنا موجود)، لكني لم أتلق أي رد ، لعله شخص غير إجتماعي!

انهمكت في جذب صنارتي التي علقت فيها إحدى الأسماك، و سمعت صوت خطوات ذلك الشخص تقترب مني حتى توقف بجواري ، لا أستطيع النظر إليه فأنا منهمك بجذب سنارتي في معركة مع سمكة تبدو قوية، لم يمهلن و قال :

-(أريد إشعال سيجارتي إذا سمحت).

- أجبته: (أعطني لحظة).

-لكنه أعاد: (أريد إشعال سيجارتي إذا سمحت).

لم أجبه، و أكملت معركتي دون النظر إليه حتى أخرجت صيدي، و وضعته في ثلاجة الأسماك، أخرجت قداحتي من جيبي و نظرت ناحيته قائلًا:

- (الصبر يا أخي؛ فالدنيا لن تطير).

أشعلت القداحة و على ضوئها لم أر شيئًا سوى سيجارة معلقة في الفراغ كأن أحد ممسكًا بها و لكن لا أحد!

أنفاسي ارتعدت مع فرائصي ، و شعرت ببرودة تسري في جسدي و شعر جسدي كله يقف، وبدأت عيناي تدمعان ولا أخفي عليكم، فقد بللت بنطالي أيضًا.

و مع إرتعادي سقطت القداحة من يدي و انطلقت أجري و تركت كل أشيائي، لا أدري أين فإني لا أرى شيئًا، و ضوء الهلال و النجوم غير كافٍ ، ظللت أجري على غير هدى حتى لمحت ضوء مصباح على بعد فأكملت جاريًا ناحيته حتى وصلت إليه، إنه مصباح كهربائي معلق على جدار خلفي لزاوية صغيرة للصلاة.

ظللت ملتصقًا بالحائط، و الفزع يساورني، خائفًا من أي صوت يصدر من أي مكان ولا يؤانسني سوى ذلك المصباح الوحيد مثلي!

مرت ساعتان كأنهما دهور ، حتى أفزعني صوت عال أتى من ميكروفون الزاوية بأذان الفجر أهدر ما بقى من شجاعتي و كرامتي و لكنه بعث في بدلٍ منهما الطمأنينة، تحسست جدار الزاوية حتى وصلت لبابها و دخلت و اغتسلت وصليت الفجر مع الإمام، و عزمت على ألا أكررها.

عدت للبيت مع شروق الشمس و تركت أشيائي، فليس عندي الشجاعة للعودة لإحضارها، قضيت صباحي في ترتيب بيتي و قررت أن أقضي ليلتي أمام التلفاز محاولٍ أن أتناسى ما حدث.

ظللت أشاهد التلفاز حتى منتصف الليل و لأتمكن من الذهاب للعمل غدًا صباحًا، أغلقته و توجهت لغرفتي لأنام، و ما أن فعلت حتى سمعت صوت طقطقة نيران مشتعلة و ضوءها يأتي من غرفتي يتبعها صوت صرخات لشخص ما يحترق، جريت ناحية الغرفة لأرى ما يحدث، و لكنني لم أجد شيئًا، الغرفة مظلمة و الأضواء مطفأة و كل شيء هادىء.

obeikandl.com

ثم بدأ يظهر ضوء ضبابي فوق الفراش حتى أصبح ككرة من ضباب أبيض كثيف مضيء ، تحركت تلك الكرة طافية في الهواء بهدوءٍ وأنا أتبعها بنظري مرتعبٍ غير مصدق لما أرى، حتى دخلت إلى الحمام، و صلت لقاعدة الحمام ثم سقطت فيه.

صرخة مدوية تبعتها مجهولة المصدر، وتبعتها أنا بسقوطي فاقدٍ للوعي!

-عليَّ أن أرحل من هنا.

هذا ما ورد في ذهني أول ما أفقت من إغمائي صباحًا ، جمعت ما استطعت من ملابسي في حقيبة و نويت أن أحضر البقية فيما بعد!

هرولت مسرعًا نحو باب المنزل فوجدت البواب الذي أجرني الشقة واقفًا عنده، ظللت أصرخ فيه وهو يُهديء من روعي ، و أخبرته ما حدث كله!

ولكنه قال لي:

- (سأخبرك ما حدث و لكن لا تغضب ، كان هناك شاب يسكن في شقتك بالتحديد ، كان على خلاف مع أسرته و خطيبته و حياته ممتلئة بالمشاكل، كان يهوى الصيد مثلك يا بنيّ، حتى جاء عليه يوم تفاقمت عليه المشاكل فوق احتماله فقرر أن ينتحر، أحضر زجاجة كيروسين و سكبها على رأسه و أشعل في نفسه النار، كانت صرخاته مفزعة ملأت المكان، من كان قريبًا من المكان و أنا معهم كسرنا باب شقته و أطفأنا الحريق بصعوبة، كان قد أصيب بإصاباتٍ بالغة، أحضرنا طبيبًا لعلاجه، ولكن الطبيب أخطأ خطأ فادحًا؛ فقد تخلص من آثار احتراقه و التي كانت فيها بقايا بشرية في المرحاض، و مات بعدها الشاب بعدة أيام، بعدها بدأ ذلك

الضوء و الصرخات و أحداث غريبة تحدث كل ليلة في ذات اليوم الذي مات فيه الشاب من كل عام).

قلت له:

-(على أي حال علي الرحيل).

-فأجاب:

- (يبدو أنك لم تفهم بعد، ذلك الشاب كان أنت، ولا يمكنك أن ترحل و كذلك أنا، فكلانا أموات!)

obeikandl.com